الاصطفاف غير المرئي!

21-11-2003

والاصطفاف الإيراني الأمريكي يمثل الحل لاحتياجات كلا الجانبين، كما أنه وعلى المدى البعيد، فإن الإيرانيين هم الفائزون الرئيسيون. وعندما تتهيأ الظروف، تستعد إيران للسيطرة على الخليج وشبه الجزيرة العربية، الأمر الذي يثير اضطرابا واختلالا في ميزان القوى الإقليمي ويقذف بالحكام السعوديين إلى حالة من الذعر والهلع، إذ أن أسوأ سيناريو بالنسبة للسعودية، هو تمكين إيران من السيطرة الإقليمية، أما

أعلن الرئيس الإيراني محمد خاتمي بهدوء في 17 نوفمبر اعترافه بمجلس الحكم العراقي وقبول التسلسل الزمني الأمريكي المتعلق بانتقال السلطة في العراق، وتحدث الإعلان عن الشراكة التي ستوجه مستقبل العراق، وقد صرح خاتمي قائلا :"إننا نعترف بمجلس الحكم العراقي، ونعتقد أنه قادر مع الشعب العراقي على إدارة شؤون البلاد واتخاذ الإجراءات للاستقلال". والأكيد أن التحالف –قصير الأجل- بين واشنطن وطهران يخدم المصالح الحيوية لكلا الطرفين: فبينما تكسب الولايات المتحدة صديقا "فعالا" لمساعدتها في مكافحة المقاومة السنية، تحوز إيران القدرة على تخفيف التهديد القديم على حدودها الغربية.

وأثارت تصريحات خاتمي عجب المراقبين، فمجلس الحكم العراقي من اختراع الولايات المتحدة، والآن وقد اعترف رئيس إيران به كحكومة شرعية للعراق، وأعلن دعم إيران أيضًا للجدول الزمني لنقل السلطة، فإن من شأن هذا وذاك أن يدفع بتلاقي المواقف الإيرانية والأمريكية. ويذكر هذا الاصطفاف بالعلاقة الأمريكية الصينية في أوائل السبعينيات : إذ بالرغم من الاختلافات الأيديولوجية العميقة التي حالت دون أن يتوصل الفريقان إلى حل وسط، فإن الاهتمامات الجغرافية السياسية المشتركة قد أجبرت كلا الطرفين على التلاقي. فالبلدان ليسا صديقين ولا حليفين، لكن التاريخ و الجغرافيا صنعا منهما شريكين. وقد توقعت بعض التحليلات هذا الاصطفاف، باعتبار أن الحل الوحيد بالنسبة للولايات المتحدة في العراق، هو الشراكة مع إيران، الأمر الذي تعتبره طهران بمثابة تحقيق حلم تاريخي بالنسبة لطموحها في العراق. لكن ما يثير الاهتمام أكثر، التعاطي "الهادىء" وبشكل استثنائي للإعلام العالمي مع ما اعتبره المراقبون "تطور مثير نوعا ما للأحداث".

عندما ذهب نيكسون إلى الصين، تم إبراز الزيارة عمدا كحدث إعلامي ضخم. حيث أراد كل من الصين والولايات المتحدة تأكيد وإظهار التحول في الاصطفاف أمام الاتحاد السوفيتي وجماهيرهم. لكن في حالتنا هذه، لا الولايات المتحدة ولا إيران تريد تركيز الانتباه على هذا الحدث. إذ بالنسبة لواشنطن، فإن الاصطفاف مع "عضو مؤسس" لمحور الشر يطرح مشاكل سياسية هامة، وبالنسبة لطهران، فإن الاصطفاف مع "الشيطان الأكبر" يثير مشاكل مشابهة. كلاهما يريد هذا التحول، لكن ولا واحد يريد أن يجعله رسميا. وفي الوقت نفسه، لا أحد منهما يريد جذب الانتباه. وبالنسبة للإعلام, فإن عدم التقاط الصور للطرفين، يعني أن لا شيء قد حدث . لذلك، باستثناء ما أفادت به بعض وكالات الأنباء بشكل عابر، فإن تصريح خاتمي تم تجاهله بشكل عام، وهذا ما تريده واشنطن و طهران. وفي نفس اليوم الذي أطلق فيه خاتمي هذا التصريح، ركزت الأخبار عن إيران على برنامج البلد للأسلحة النووية.

عندما غزت الولايات المتحدة العراق، كان التوقع السائد أن تدمير القوات العراقية التقليدية وسقوط بغداد سينهيان المقاومة. وكان متوقعا أيضا أن البلد قد يشهد "عنفا عشوائيا"، وأن تظهر بعض المقاومة وما إلى ذلك، لكن لم يكن هناك توقع أنه ستكون هناك حرب عصابات بشكل متواصل ومنظم.

وشعرت أمريكا أن يدها طليقة في تشكيل وحكم العراق. وتقاطرت على واشنطن جميع أنواع الخطط والمخططين الذين كانوا على وشك إعادة تصميم العراق. ولم يمت الحلم بسهولة أو بسرعة، حيث كان وزير الدفاع دونالد رامسفلد ينكر وجود حرب عصابات في العراق في وقت مبكر من يوليو، أي بعد أكثر من شهرين على اندلاعها، وكانت المسافة تتباعد بين واشنطن والواقع في مايو ويونيو. وكان هذا الوهم متبوعا بصيف مشلول. لم تُعدَ الولايات المتحدة لحرب عصابات في العراق، ولم يكن لديها أي خطة لمواجهة هذه الحرب، وتعثرت محاولات "القضاء" على حركة المقاومة وذلك راجع في بعض جوانبه إلى غياب المعلومات الاستخبارية عن المقاتلين. وفي الحقيقة، فإن الولايات المتحدة لم تكن قادرة على خوض حرب العصابات بدون الحلفاء، حيث لم يكن لديها المعرفة المفصلة عن البلد والمجتمع، المطلوبة لهزيمة ولو حركة مقاومة صغيرة كانت تنشط في مناطق تمركزها.

في البداية لم يشترك معظم البلد في حرب العصابات، التي انحصرت أساسا عند اندلاعها داخل المثلث السني وفي أوساط المجتمع السني. ولم يشارك الشيعة والأكراد في حركة المقاومة، وليس هذا فحسب، بل عارضوها. ولا يعني هذا بالضرورة أنهم مؤيدون لأمريكا، ولكن كانت لديهم مصالحهم الخاصة : أراد الشيعة في العراق الاستئثار بالحكم في عهد ما بعد صدام، حيث شكل إحكام السيطرة على العراق أولوية ملحة. وليس صحيحا القول أن إيران تحكمت ببساطة في كل أطياف الشيعة العراقيين، إذ أن هناك توترات تاريخية بين المجموعتين، وما يمكن الجزم به في هذا الصدد، أن المخابرات الإيرانية اخترقت الشيعة العراقيين خلال فترة حكم صدام وحاولت تنظيم صفوفهم، وأنها وفرت ملاذا آمنا لكثير من زعماء العراق الشيعيين، وعليه، فمن الواضح أن لدى طهران تأثير كبير على العراق، الأمر الذي يعني (نظريا) أنه "يفترض" أن تراعي أهداف الشيعة العراقيين المصالح الوطنية الإيرانية.

ولدى إيران مصلحة أساسية وحيوية في عراق مؤيد لإيران، أو على الأقل محايد. ولا يتحقق ذلك، إلا في ظل حكومة خاضعة لسيطرة الشيعة. ومع قيام هذه الحكومة، فإن التهديد العراقي التقليدي يختفي والأمن القومي لإيران يتعزز. وبتعبير استراتيجي، فإن العراق هو التوازن الطبيعي لإيران، وإذا حُيَد العراق، فإن إيران تصبح القدرة المتميزة في الخليج. وبمجرد أن تترك الولايات المتحدة المنطقة، فإن إيران تنتقل إلى وضع السيطرة على المنطقة. ولدى إيران، كل الأسباب لرؤية التطور الذي يؤدي إلى حكومة شيعية في العراق . ولدى واشنطن الآن اهتمام مشابه، إذ ليس للولايات المتحدة القدرة على قمع المقاومة السنية، وعليه، فهي تحتاج إلى حليف عنده مصلحة حيوية في محاربة المقاومة. وإذا كان المطلوب من بريمر (الحاكم المدني الأمريكي في العراق) هو الإسراع بنقل السلطة إلى مجلس الحكم العراقي، فإن هذا يعني نقله إلى الشيعة. وهذا ليس فقط لأنهم يمثلون أغلبية داخله، ولكن عندما يحين الوقت لجمع جيش عراقي لمحاربة المقاتلين، فإن ذلك الجيش سيكون في الغالب شيعيا، فالشيعة مصرون على السيطرة على الجيش الجديد، ولن يسمحوا بعودة "الهيمنة" للسنيين –أو هكذا يتصورون-. لذلك، فإن مهمة بريمر هي نقل السيادة إلى مجلس الحكم الذي يعني انتقال السيادة إلى الشيعة؟.

وأما قضية القدرات النووية لإيران التي أُثيرت مؤخرا، فمن الواضح أن طهران تتطلع لأن تصبح طاقة نووية وصولا إلى الهيمنة الإقليمية. لكن ذلك يتعذر حدوثه، والإيرانيون يعرفون ذلك، لن يحدث (أي امتلاك قدرة نووية) لأن إسرائيل لا يمكن أن تسمح له بذلك، لأنها تعتقد أنه يهدد أمنها

القومي. وبتعبير أدق، فإن إسرائيل ستهدد بتدمير قدرات إيران، الأمر الذي يضع الولايات المتحدة في وضع حرج. لذلك، ستُجْبَر واشنطن طهران على تجميد مشروع نووها، إذ ترى أن هجوما أمريكيا غير نووي أفضل من هجوم نووي إسرائيلي. لهذا، أبلغت الولايات المتحدة إيران أن تعيد النظر في الخيار النووي. في حين يستخدم الإيرانيون هذا الخيار لانتزاع أقصى ما يمكن من تنازلات سياسية من الولايات المتحدة. ومن مصلحة طهران أن تظهر وتثبت مصداقية برنامج البلد النووي بدون تجاوز الخط الذي سيدفع إلى رد إسرائيلي وتحرك وقائي من واشنطن، وقد وُفق الإيرانيون في تحقيق ذلك بمهارة، وبهذا تتمكن أمريكا من إدارة الوضع بفاعلية أيضا، وعليه، فإن القضية النووية ليست المحور.

والاصطفاف الإيراني الأمريكي يمثل الحل لاحتياجات كلا الجانبين، كما أنه وعلى المدى البعيد، فإن الإيرانيين هم الفائزون الرئيسيون. وعندما تتهيأ الظروف، تستعد إيران للسيطرة على الخليج وشبه الجزيرة العربية، الأمر الذي يثير اضطرابا واختلالا في ميزان القوى الإقليمي ويقذف بالحكام السعوديين إلى حالة من الذعر والهلع، إذ أن أسوأ سيناريو بالنسبة للسعودية، هو تمكين إيران من السيطرة الإقليمية، أما أمريكا فلا تهتم كثيرا بأمر السيطرة مادام الذي يحدث يخضع لترتيبها. لكن المستقبل هو المستقبل، والراهن هو الراهن، والراهن يعني وجود حرب عصابات استعصت على الولايات المتحدة، وتعتقد واشنطن أن الاصطفاف الإيراني يحلَ هذه الورطة. لهذا، لن تنشغل واشنطن بالتغيرات في المنطقة على المدى البعيد، بينما ترى أنه على المدى القريب، فإن الاصطفاف الإيراني الأمريكي هو أحد أهم "الأخبار" منذ هجمات 11 سبتمبر، وهو يمثل انتصارا جغرافيا سياسيا لكلا الطرفين.